

علي الطنطاوي

عبد الله بن المبارك



عبدالله بن المبارك

علي الطنطاوي

عبد الله بن المبارك

دار الفكر

الرقم الاصطلاحي: ٢-٠٣١، ٠٠٣٦
الرقم الموضوعي: ٩٢٠
الموضوع: تراجم وسير
العنوان: عبد الله بن المبارك
التأليف: علي الطنطاوي
الصف التصويري: دار الفكر - دمشق
التنفيذ الطباعي: مطبعة سيكو - بيروت
عدد الصفحات: ٣٢ ص
قياس الصفحة: ١٤×٢٠سم
عدد النسخ: ١٥٠٠ نسخة

دار الفكر بدمشق
برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد
ص.ب: (٩٦٢) دمشق - سورية
برقياً: فكر
فاكس ٢٢٣٩٧١٦
هاتف ٢٢٣٩٧١٧، ٢٢١١١٦٦
http://www.Fikr.com/
E-Mail: Info @Fikr.com

إعادة 1997
الطبعة الثانية
1399 هـ = 1979 م
ط1 1960

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله نحمدُه ونستعينه ونتوبُ إليه ونستغفره ونعوذ بالله من شرورِ أنفسنا وسيئات أعمالنا، اللهم اجعل عملي هذا خالصاً لك، اللهم إني أسألك أن تنفع به، وأن تثيبني عليه. وصلّ اللهم على سيّدنا محمد معلم الخير وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان.

الزهد في الاسلام

ما أكثر أدعياء الزهد ، وما أقل الزاهدين ؟

وليس الزهد في الدنيا أن تتركها وتنفض يدك منها ، وتأوي الى مغارة مظلمة أو دير منقطع . وليس ذلك من الاسلام ، ولو أن كل مسلم فعل هذا ، أو اتبع ماخط الغزالي[1] في بعض صفحات (الاحياء) لما بقيت على الارض أمة تدعو الى الله وتجاهد لاعلاء كلمته ، وتكون خير أمة أخرجت للناس ، تسود الارض بحقها ، وتمحق الباطل بقوتها ، وتحقق أماني البشر في العدل والخير ...

ولكن الزهد ما كان عليه رسول الله ﷺ وصحبه . ومن أزهد من رسول الله ؟

كان الصحابة عبيداً لله ، سادة في الدنيا ، وكانوا أذلة على المؤمنين ، أعزة على الكافرين ، وكان منهم من آثر القناعة والرضا بالقليل وهو راض عن الله ، ليس في نفسه طمع في الغنى ، وليس في قلبه حسرة على فواته ، وهو ماكان عليه رسول الله ﷺ ، ومنهم من كان له المال الوفير ، ولكن المال كان في يده لا في قلبه ، وكان اعتماده على الله لا على المال ، وكان يجمعه بكد وينفقه عن رضا ، لا يستخفه الفرح بما أتاه منه ، ولا يهده الأسى على ما فاته .

(١) الغزالي من اعظم علماء الملة ، وليس له في تفكيره مثيل ، ولكنه لما سلك مسالك الصوفية جاء في كتابه الاحياء بما أنكر عليه .

وهذا هو الزهد . لرُبَّ غنيٍّ مفرطِ الغنى كعثمان ، وعبد الرحمن ، والزبير ، كان أزهد في الدنيا من كثيرين ممن يلبسون مرقعات الصوف ويكتفون بالخبز والملح ، وينامون على التراب ، وقلوبهم متعلقة بالدنيا ، وأنظارهم شرهة الى ما في أيدي الأغنياء .

والاسلام لا يمنع الغنى ، ولا يحرّم جمع المال ، إن أدى صاحبه زكاته ، وما نسب الى أبي ذر كان وهماً منه ، خالفه فيه من الصحابة من هو أعلم منه علماً ، وأقدم إسلاماً ، ولم يأخذ به أئمة الفقهاء(١) .

* * *

زاهد حقيقي

وأنا محدثكم عن زاهد ، عرف حقيقة الزهد ، فكان ظاهره ظاهر أبناء الدنيا ، وقلبه قلب من لا يغفل عن الله . وكان يخفي صلاحه ، ويحرص أكثر المتزهدين على إظهار الصلاح . ويهرب من السلطان ، ويتزاحم الناس على بابه . ويحرص على اتباع السنة ، ويتمسك الناس بالبدع والمحدثات . ويستصغر نفسه ،

---

(١) فلينتبه لذلك شبان المسلمين ولا يغتروا بما يقرؤونه لبعض كتاب العصر عن (أبي ذر) واشتراكيته التي يزعمونها فالمسألة كما ذكرت .

ويتكبر النـــاس ، ويزهون بأنفسهم • وكان مـــع ذلك كله ، محدثا فقيهاً عالماً ، ولم يكن من العبـــاد الجاهلين • وربما لبَّس إبليس على العابد الجاهل أو عبثت به الشياطين ، فإن رأى عابداً فقيهاً خنس وأبلس •

★ ★ ★

مشهد في الرقة

يبدأ هذا الحديث في الرقة ، ولم تكن الرقة كما هي اليوم قرية منقطعة ، بل كانت مدينة زاهرة ، فيهـــا القصور ، وفيهـــا المغـــاني ، وكانت منـــزل هارون الرشيد ، أعظم ملوك الدنيـــا في عصره ، يفر اليها من الدنيا كلما حنَّ الى حيـــاة الصحراء ، حياة العرب الأوَل ، بطهرها وصفائهـــا ، فتلحقه اليهـــا الدنيـــا بعظمتها وجلالها •

وكان قد وصل موكب الخليفة ، فخرج الناس لاستقباله ، وحفوا بقصره تطلعـــاً الى رؤية وجهه ، وأمـــلا بنيل عطاياه ، وكانت معه نساؤه وجواريه ، وكن يستشرفن مـــن خِصـــاص النوافذ ، يرَيْن هذا الحشد وهذا الازدحام فيشعرن بالزهو والعظمة والاغتباط •

••• ونظرن يوماً ، فإذا الناس ينفضّون من حول القصر ،

ويسرعون الى مدخل البلدة ، يتطلعون الى الطريق كأنهم يرقبون من يطلع عليهم •

فعجبن وسألن :

ـ من هذا القادم الذي نسي الناس لمقدمه الخليفة وموكبه وعطاياه ؟

قالوا : هو عالم من خراسان •

قلن : عالم ؟ وماذا يكون هذا العالم ؟ وماذا يبتغي الناس منه ؟

قالوا : يسألونه عن أمور دينهم •

قلن : هذا والله الملك ، لا ملك هارون الرشيد ، الذي لا يجمع الناس عليه إلا بالدراهم أو بالعصا •

وكان هذا العالم الخراساني هو عبد الله بن المبارك ، أحد أعاجيب الدنيا •

* * *

منزلته بين المحدثين

لقد كان في عصر تدوين الحديث ، وكانت مجالس التحديث

منتشرة في كل بقعة من ديار الاسلام ، وكان المحدثون فيه (وفي العصر الذي يليه) متوافرين ، وكان في هذا العصر عدد من أئمة الحديث لم يجتمع مثلهم في عصر غيره ، فتعالوا نسأل عنه في جماعة المحدثين .

هذا أحمد بن حنبل ، ناصر السنة ، الصابر في المحنة ، شيخ المحدثين ، صاحب المسند ، فاسألوه عنه يقل لكم إنه لم يكن في زمانه أحد أشد طلباً للحديث منه .

وهذا النسائي[1] ، أحد المؤلفين الستة الذين كتب لأسمائهم الذكر ، ولكتبهم البقاء ، يخبركم أنه لم يكن في عصره أجلّ منه .

وهذا عبد الرحمن بن مهدي[2] ، أتعرفونه ؟ هو الذي قال فيه الشافعي ، لم أعرف له نظيراً في الدنيا . إن عبد الرحمن يشهد أن الأئمة أربعة (يعني أئمة الحديث) : سفيان الثوري[3] ، ومالك بن أنس ، وحماد بن زيد[4] ، وابن المبارك . ويقول إنه لم يكن أعلم بالحديث من سفيان ، ولا أحسن عقلاً من مالك ، ولا أقشف من شعبة[5] ، ولا أنصح لهذه الأمة من عبد الله بن

(١) صاحب السنن ، المتوفى سنة ٣٠٣

(٢) من كبار حفاظ الحديث توفي سنة ١٩٨

(٣) كان سيد أهل زمانه في العلم والتقوى توفي سنة ١٦١

(٤) شيخ المحدثين في العراق توفي سنة ١٧٩

(٥) شعبة بن الحجاج ، من علماء الجرح والتعديل ، قال أحمد : هو امة وحده في هذا الشان ، وكان مع ذلك عالما بالادب والشعر : شهد له بذلك الاصمعي توفي سنة ١٦٠

المبارك • ثم فضل ابن المبارك على سفيان وقال :

ـ كا ن ابن المبارك أعلم من سفيان الثوري • فقيل له :

ـ إن الناس يخالفونك •

قال : إن الناس لم يجربوا ، ما رأيت مثل ابن المبارك •

وقدم ابن مهدي بغداد في بيع دار له ، فاجتمع اليه أصحاب الحديث ، فقالوا :

ـ جالست سفيان الثوري وسمعت منه ، وسمعت من عبد الله ، فأيهما أرجح ؟ فقال :

ـ ما تقولون ؟ لو أن سفيان جهد جهده على أن يكون يوماً مثل عبد الله لم يقدر •

وقال علي بن المديني[1] : عبد الله بن المبارك أوسع علماً من عبد الرحمن بن مهدي •

وكان يحيى بن آدم[2] يقول : كنت اذا طلبت الدقيق من المسائل فلم أجده في كتب ابن المبارك أيست منه •

وقال سفيان : إني لأشتهي من عمري كله أن أكون سنة واحدة مثل عبد الله بن المبارك ، فما أقدر أن أكون ولا ثلاثة أيام •

---

(١) علي بن عبد الله المديني ، محدث مؤرخ كان حافظ عصره توفي سنة ٢٣٤ •

(٢) محدث فقيه توفي سنة ٢٠٣ وله كتاب الخراج وهو احد الكتب الثلاثة التي تعد اعظم المراجع في بحث المالية في الاسلام (هذا الكتاب ، والخراج لابي يوسف ، والاموال لابي عبيد القاسم بن سلام) •

وجاء رجل فسأل سفيان عن مسألة ، فقال له :

ـ من أين أنت ؟

ـ قال : من أهل المشرق .

ـ قال : أوليس عندكم أعلم أهل المشرق ؟

ـ قال : ومن هو يا أبا عبد الله ؟

ـ قال : هو عبد الله بن المبارك .

ـ قال : هو أعلم أهل المشرق ؟

ـ قال : نعم ، وأهل المغرب .

وشهد له بمثل ذلك الفضيل بن عياض[1] .

وقال ابن عيينة[2] : نظرت في أمر الصحابة وأمر عبد الله بن المبارك فما رأيت لهم عليه فضلاً إلا بصحبتهم النبي ﷺ وغزوهم معه .

وشهد له بمثل ذلك يحيى بن معين[3] ، إمام أهل الجرح والتعديل .

* * *

---

(١) من اكابر المحدثين والزهاد الصالحين ، كان شيخ الشافعي توفي سنة ١٨٧.

(٢) سفيان بن عيينة محدث الحرم المكي ، حافظ ثقة ، قال الشافعي : لولا مالك وابن عيينة لذهب علم الحجاز ، توفي سنة ١٩٨ .

(٣) الذي شهد له احمد فقال : هو اعلمنا بالرجال توفي سنة ٢٣٢ .

بطولته وجهاده

أرأيتم منزلته بين أهل الحديث ؟

إنه لو لم يكن إلا هذه لكفته . ولكن له غيرها .

إن المحدثين رجال صحيفة وكتاب ، ومجلس وسماع[1] ، ولكن ابن المبارك كان مع ذلك رجل منازلة وضراب ، وفروسية وصراع .

فتعالوا نسأل عنه في مجال الابطال : في الثغر .

إن الثغور أيها القراء ، هي المدن المكشوفة على الحدود ، التي يمكن أن يتسلل منها العدو ، ولقد أقامت فيها الدولة مخافر دائمة فيها الجند ، تحمي هذه الثغور ، هي (العواصم) ؛ ولكن القوة التي كانت تحميها حقيقة وترد عنها العدو ، هي قوى المتطوعين الذين يخرجون من أنفسهم ، يبيعونها من الله ، ويبذلونها في سبيله ، ليكون لهم ثواب المجاهدين .

فكان كل ثغر بابا مفتوحاً الى الجنة ، ومدرسة دائمة للبطولة ، ومجالاً للأبطال .

وكان ابن المبارك يحج سنة ، ويغزو مرابطاً في الثغر سنة ، فكان المجاهدون إذا سمعوا بوصوله تسابقوا الى استقباله وحفوا

---

(١) سماع الحديث لا سماع الغناء .

به يتعلمون منه العلم ، ويكرمون فيه البطل ، ولقد كان أحد الابطال ، الذين تشتد بوجودهم قلوب الرجال •

وكانوا إذا احتدم الخطب ، وادلهمت المعركة وعبست ، لجؤوا اليه والى أمثاله من المجاهدين ، الذين لا يخافون موتاً ولا يرهبون عدواً ، لأنهم كانوا يخافون الله ، ولا يجتمع في قلب واحد الخوف من الله والخوف من الموت في سبيله ، وهاكم أحد المرابطين يخبركم خبره ويسمعكم حديثه :

حدّث عبدة المروزي عنه أنه كان معه في سرية في بلاد الروم، وكانت قد خرجت للاستطلاع والكشف ، لا للحرب والقتال ، ففاجأتها قوة ضخمة من الروم وأحاطت بها ، واضطرت السرية للدفاع ، فاصطف العسكران ، وبرز الى الميدان فارس من الروم ، فجال بين الصفين ، ودعا الى المبارزة على عادتهم في تلك الأيام ، فبرز اليه فارس معروف من فرسان المسلمين ، فما هي إلا جولات حتى قتله الرومي ، وعاد يدعو الى المبارزة فخرج اليه آخر فقتله ، وثالث فقتله ، فتأخر عنه المسلمون ، فصال وجال وراح يفخر ويتحدى •••

فبرز له رجل منا ، متلثم ، لا يبين منه إلا عيناه ، ولم نعرف من هو ، فخفنا عليه أن يلحقه الرومي بالثلاثة الذين قتلهم ، وإذا هو يصاوله ساعة ولا يقدر أحد منهما على صاحبه ، وقد تعلقت بهما أنظار أهل العسكرين ، وكل منهما يهتف لصاحبه ويشجعه ويدفعه ، وهما يبديان من الكر والفر وفنون

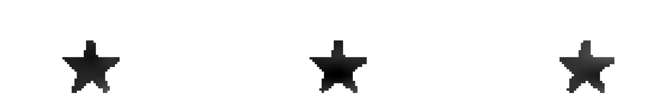
القتال ما لم ير الناس مثله ؛ ثم طعن الفارس الملثم الرومي فصرعه وألقاه قتيلاً .

وكبر المسلمون ، وانخذل الروم ، وازدحمنا عليه لما رجع وهو يتوارى منا لئلا نعرفه ، ولا يخبرنا عن نفسه ، فأسرعت اليه فأخذت بلثامه ، فأزحته عن وجهه ، فإذا هو عبد الله ابن المبارك .

أرأيتم منزلته بين المقاتلين ؟

لو لم يكن له إلا هذه لكفته ، ولكن له غيرها .

ذلك أن المجاهدين المقاتلين كالعلماء المحدثين ؛ ما فيهم إلا من هو فقير مفلس ، أو مكتف مستور ، ولكن هذا المحدث المجاهد كان غنياً واسع الغنى ، ولم ينل غناه إرثاً من أبيه ، فأبوه ، كما ستعلمون ، لم يكن من أرباب الأموال ، ولم يَنَلْه من عطايا السلطان ، فما له صلة بالسلاطين ، بل ناله بكده وجده ، إنه كان تاجراً من أكبر تجار عصره ؛ وكانت له قوافل تسير ببضاعته من خراسان الى العراق والشام .



جوده وكرمه

لقد اجتمعت له المزايا الثلاث ، السيادة في العلم ، والشجاعة

في الحــرب ، والسعة مــن المــال ، ولكن هــذه الثــلاث لم تكن مــزاياه كلهــا ، إن له غيرهــا ، ذلك أن التجــار ، ولو كانوا علمــاء ، وكانوا شجعاناً ، لا يريدون إلا النفع العــاجل والربح القريب .

أما هذا التاجر فكان أعقل من أن يكتفي بالربح القليل ، عــن الربح الكثير ولو مع التأجيل ، فلم يكن يبيع بربح خمس في المئة ، ولا عشر ، ما كان يرضى ربحاً أقلّ من أن تصير مئته الواحدة سبعين ألفاً ، على الأقل ، وربما صارت المئة في هــذه التجارة مئة وأربعين ألفاً .

تدرون ما هذه التجارة ؟

هي التجــارة مع الله يا أيهــا القراء ، تجــارة الصدقات . وما كــان يتــاجر ويشتغل إلا مــن أجلهــا ، وكــان قــد (خصص) مئــة ألف في كــل سنة عطــايا وهــدايا للعلمــاء والمجاهدين ، وكان للكثير منهم رواتب دائمة من صندوق هذا التاجر العالم .

ولقد عوتب فيما يفرق من المال في البلدان ولا يفعل ذلك في أهل بلده ؟

فقال : إني أعرف مكان قوم لهم فضل وصدق ، طلبــوا الحديث فأحسنوا الطلب للحديث ، بحاجة الناس اليهم احتاجوا ، فإن تركناهم ضاع عليهم ، وإن أعناهم بثوا العلم .

وكان يقول للفضيل بن عياض : لولا أنت ولولا أصحابك ما تاجرت •

* * *

وأخبار عطاياه لا تكاد تصدق • منها أنه كان إذا خرج الى الحج ، اجتمع عليه إخوانه من أهل (مرو) فيقولون :

ـ نصحبك يا أبا عبد الرحمن ؟

فيقول : نعم • ثم يأمرهم أن يجيئوا بنفقاتهم التي أعدوها لحجهم . فيأخذها منهم فيجعلها في صندوق ، ويقفله عليها ، ثم يكتري لهم الدواب ، ويطعمهم أطيب الطعام ، ويقدم اليهم أنفس الحلويات ، حتى يصلوا بغداد ، فينزلهم فيها ، ثم يخرجهم منها على أكمل حال ، حتى يصلوا الى المدينة ، فيقول لكل رجل منهم :

ـ أما وصّاك عيالك أن تشتري لهم من طُرَف المدينة ؟

فيقول : بلى •

فيقول له : وبم وصّوك ؟

فيقول : بكذا •

فيشتريه له . ثم اذا قدموا مكة قال لهم مثل ذلك ،

واشترى لهم ما يريدون ، ثم يعود بهم ، حتى اذا اقتربوا من (مرو) ، أرسل من يجيء الى دار كل واحد منهم فيصلحها ويجصصها ويرممها ويزينها ، فاذا كان بعد ثلاثة أيام صنع لهم وليمة ودعاهم ، فأطعمهم ، ووزع عليهم الثياب الجديدة ، ثم دعا بالصندوق ففتحه ، وردّ على كل واحد منهم ما كان دفعه اليه من النفقة .

وحدّث خادمه أن آخر وليمة من هذه الولائم ، كان فيها خمسة وعشرون خواناً عليها الفالوذج .

* * *

وكان يخرج في الجهاد الى (المصّيصة)[1] فصحبه مرة جماعة من الصوفية تطوعوا للجهاد ، فقال لهم :

ـ أنتم لكم نفوس تحتشمون من أن ينفق عليكم أحد .

ودعا بطست فغطاه بمنديل ، وقال :

ـ يلقي كل رجل منكم ما معه من المال تحت المنديل .

فجعل الرجل منهم يلقي عشرة دراهم ، والرجل يلقي عشرين درهماً ، فلما بلغ (المصّيصة) قال :

ـ هذه بلاد نفير ، فلنقسم ما بقي .

(١) كانت المصيصة وهي في شمال سورية ثغراً مشهوراً من ثغور الروم .

فيعطي الرجل عشرين ديناراً ، فيقول له :

ــ يا أبا عبد الرحمن ، إنما أعطيت أنا عشرين درهما •

فيقول له : وهل تنكر أن يبارك الله للغازي في ماله ؟

* * *

وجاءه رجل فسأله أن يقضي ديناً عليه ، فكتب بذلك الى وكيل له ، فلما ورد الكتاب على الوكيل سأله :

ــ كم الدين الذي عليك ؟

قال : سبعمئة درهم •

فنظر الوكيل في الكتاب فاذا هو أمــر له بسبعة آلاف ، فكتب اليه :

ــ إنك قد كتبت سبعة آلاف وإنما هي سبعمئة ، وقد ذهبت الغلات ولم يبق منها إلا القليل •

فكتب اليه ابن المبارك :

ــ والعمر قد ذهبت أيامه ولم يبق منها إلا القليل ، أعطه ما سبق به قلمي •

* * *

وكان عبد الله كلما ورد (الرقة) في طريقه الى (الثغر) ينزل في خان ، وكانت الخانات هي فنـادق تلك الأيام ، فكان يتردد عليه شاب ، يخدمه ، ويقوم بحوائجه ، ويسمع منه الحـديث ، فقدم عبـد الله (الرقة) مرة ، فلم ير ذلك الشـاب ، وكـان مستعجلاً فمضى الى الثغر ، فلما عاد الى (الرقة) سأل عنه ، فقالوا ، انه محبوس لدين ركبه ، فلم يزل يستقصي ، حتى دُلَّ على صاحب الدين ، فدعا به ليلاً ، ودفع اليه عشرة آلاف درهم ، وأمره أن يخرج الشاب من الحبس ، وحلفه ألا يخبر بذلك أحداً ما دام عبد الله حياً .

وخرج الرجل من الحبس ، فقيل له ، ان عبد الله بن المبارك كان هنا ، وقد سافر ، فركب فلحقه ، فقال له :

— يا فتى أين كنت ؟ فاني لم أرك في الخان .

قال : نعم يا أبا عبد الرحمن ، كنت محبوساً بدين .

قال : فكيف كان سبب خلاصك ؟

قال : جاء رجل فقضى ديني ولم أعلم به حتى أخرجت من الحبس .

قال : يا فتى ، احمد الله على ماوفق اليه من قضاء دينك .

ولم يخبر الرجل أحداً بذلك حتى مات عبد الله .

* * *

وخرج مرة الى الحج فاجتاز ببعض البلاد ، فمات طائر[1] كان معه ، فأمر بالقائه على مزبلة هناك ، وسار أصحابه أمامه وهو وراءهم ، فإذا بنت ، قد خرجت من دار قريبة من المزبلة ، فأخذت الطائر الميت فلفته ، وأسرعت به الى الدار . فجاء يسألها عن أمرها وأخذها الميتة ، فقالت :

ـ أنا وأخي هنا ، ليس لنا شيء إلا هذا الازار ، وليس لنا قوت إلا ما يلقى على هذه المزبلة ، وقد حلت لنا الميتة منذ أيام ، وكان أبونا له مال ، فظلم وأخذ ماله وقتل .

فأمر ابن المبارك برد الاحمال . وقال لوكيله :

ـ كم معك من النفقة ؟

قال : ألف دينار .

قال : عدّ منها عشرين ديناراً ، تكفينا الى مرو ، وأعطها الباقي ، فهذا أفضل من حجنا هذا العام .. ورجع .

زهده

كان ، كما رأيتم ، محدثاً من أكبر المحدثين ، ومجاهداً من أشجع المجاهدين ، وتاجراً غنياً من أكرم التجار الأغنياء الموسرين .

---

(١) ديك او نحوه

وهذه مزايا قلما اجتمعت في رجل ، وكان له غيرها . كانت له المزية التي يندر أن تلقاها في موسر غني ، هي الزهد .

لقد كان مع هذا كله زاهداً في الدنيا لا يباليها ، ولايحرص عليها ، كان يجمع المال لا ليخزنه ويركمه في الصناديق ، ولا ليشتري به لذات تفنى وأمجاداً هي كالأوهام ، لا تشبع جائعاً ، ولا تدفىء مقروراً ، ولا ليتركه للورثة ، فيأكلوا ثمرته ، ويكون عليه هو حسابه ، ولكن ليشتري به الحسنات ، ويقدمه بين يديه الى آخرته .

وكانت تحمل سفرته على عجلة أو بعير ، فيها الدجاج المشوي والفالوذج واللحم والحلوى ، يطعم الناس منها وهو صائم ، يفطر حين يفطر على القليل .

وصَحِبَهُ قوم من مصر الى مكة ، فكان يطعمهم الخبيص وهو صائم .

وكان يكثر الخلوة بنفسه ، والجلوس في بيته ، فقيل له :
ـ ألا تستوحش ؟

قال : كيف أستوحش وأنا مع النبي ﷺ وأصحابه[1] .

(١) اي انه يشتغل بكتب الحديث .

متعة الزهاد

وهـذه واحدة من اللذات التي ينالها الزهاد والاتقيـاء والمؤمنون ، انهـا أروح على النفس ، وأمتع للقلب ممـا يلقى أبناء الدنيا من متع يحسبونها كل شيء ، ويأسون على الزهاد إن حـرموا منهـا ، وما يلقـاه هؤلاء لو ذاقـه الملوك لقاتلوهم عليه بالسيف .

ورعـه

وكان لا يبالي ما خسر من الراحة والمال في دنياه لتسلم له آخرته ، وقـد استعار مرة قلمـاً بأرض الشـام فنسيه ، فلم يذكره حتى وصـل الى بلـده في خراسان ، فخشي أن يسـأله الله عنـه ، فسـافر مـرة أخـرى الى الشـام ، حتى أعـاده الى صاحبه[1] .

وكان يقول :

ـ رد درهم من شبهة أحب الي من أن أتصدق بمئة ألف درهم ، ومئة ألف درهم ، ومئة ألف درهم ، ومئة ألف درهم ، ومئة ألف درهم .

---

(١) هذا ورع منه ، ولم يوجب الشرع عليـه ان يسافر هذه السفرة في مثـل هذا القلم .

كان مربيا

وكانت له بعد ذلك خلال أخرى ومزايا •

كان مُرَبِّياً ، يحسن الوعظ ، ويعرف كيف يأمر الناس بالمعروف ، فلا يثقل عليهم أمره ، وينهاهم عن المنكر ، فلا يزعجهم نهيه •

عطس عنده رجل فلم يحمد الله ، فقال له ابن المبارك :

ـ ايش يقول اذا عطس ؟

قال : يقول الحمد لله •

قال : يرحمك الله •

طلب العلم أفضل من الخلوة

ذكروا له العبّاد يوماً ، فقال :

ـ لقد ذكرتم قوماً يستشفى بذكرهم ، ولكن ان فعل الناس جميعهم ذلك فمن لسنن رسول الله ، ومن لعيادة المرضى وشهود الجنائز •

وحقّ ما قال ابن المبارك ، ولقد كان أهل الصدر الاول خير القرون ، وما عرفنا منهم من ترك الدنيا ، وحبس نفسه للعبادة بل كانوا يخالطون الناس ، ويطلبون العلم ، ويشتغلون بالدنيا ، وهم كانوا سادة العبّاد •

وقيل له عن جماعة من أهل العلم يأخذون من الناس الزكوات .

فقال : وما نصنع ؟ إن منعناهم وقفوا عن طلب العلم ، وإن رخصنا لهم حصلوه ، وتحصيل العلم أفضل .

وسأله شاب أيهما أفضل له ، يقرأ القرآن أو يتعلم الفقه ؟

فقال : هل تقرأ من القرآن ما تقيم به صلاتك ؟

قال : نعم .

قال : فعليك بطلب العلم .

حفظه

وكان آية في الحفظ ، وفي استمساك الذاكرة ، سئل :

ـ هل تحفظ الحديث حفظاً ؟

قال : ماتحفظت حديثاً ، إنما آخذ الكتاب فأنظر فيه ، فما اشتهيته علق بقلبي فحفظته .

وحدّث صديق له ، قال :

ـ كنا غلمانا في الكتاب ، فمررت أنا وابن المبارك برجل يخطب ، فخطب خطبة طويلة ، فلما فرغ ، قال ابن المبارك : قد حفظتها .

فسمعه رجل من القوم ، فقال : هاتها .

فأعادها عليهم ابن المبارك ، وقد حفظها ٠

وروى نعيم بن حماد[1] ، أنه سمع عبد الله بن المبارك يقول :

ـ قال لي أبي : لئن وجدت كتبك لاحرقنها ٠

فقلت له : وما عليّ من ذلك وهي في صدري ٠

أما سعة حفظه للحديث ، فهاكم عليه شاهداً واحداً ٠

حضر ابن المبارك عند حماد بن زيد مسلماً عليه ، فقال أصحاب الحديث لحماد :

ـ يا أبا اسماعيل ، تسأل أبا عبد الرحمن (يعنون ابن المبارك) أن يحدثنا ٠

فقال : يا أبا عبد الرحمن تحدثهم ، فانهم قد سألوني ٠

قال : سبحان الله يا أبا اسماعيل ، أحدث وأنت حاضر ؟

قال : أقسمت لتفعلن ٠

قال ابن المبارك : خذوا ، حدثنا أبو اسماعيل حماد بن زيد٠٠٠

وحدثهم مجلساً كاملاً ، ما حدّث فيه إلا عن حماد ، فبلغ منهم العجب ٠

---

(١) المروزي الحافظ صاحب التصانيف توفي سنة ٢٢٨ ٠

عزة نفســه

وكان في عزة نفسه ملكاً تعنو له الملوك ، وكذلك يكون العالم إذا لم يُذل هو العلم فيذل بذله ، واذا ابتغى بعلمه وجه الله والدار الآخرة ، لم يبتغ به الدنيا ومتعها •

جاءه والي مرو في منزله ومعــه كاتبــه ، ومعــه الدواة والقرطاس ، فسأله عن حديث ، ونحن نكبر اليوم أن يجيء والٍ فيسأل عن حديث ، ونراه شيئاً عجباً وأمراً نادراً ، فنشجعه عليه ، ولكن ابن المبارك ، رأى فيه ما لم نر . فأعرض عنــه ، وأكرم حديث رسول الله ﷺ أن يحدّث به من لا يطلبه لله ، أو مــن يجيء بطلبــه للفخر والمباهاة ، ومعــه كاتبه رمز سلطانه ، فلم يرد عليه ، فعاد فسأله عــن الحديث فلم يرد ، وعاد الثالثــة ، ثم قال لكاتبه ، اطوِ قرطاسك ما أرى أبا عبــد الرحمن يرانا أهلاً لأن يحدثنا •

فلما قام ، قام معه ابن المبارك الى الباب يشيعه ، فقال له :

ــ يا أبا عبد الرحمن لم ترنا أهلاً لأن تحدثنا ، وتمشي معنا؟

فقال : أحببت أن أذل لك بــدني ولا أذل لك حــديث رسول الله •

أدبــه

وكان مع هذه الدرجة في الحديث ، أديباً نحويا ، وكان له شعر ، روي أنه كان إذا خرج الى مكة يقول :

بُغضُ الحيـــاةِ وخوفُ اللهِ أخرجني
وبيـعُ نفسي بمـا ليســت له ثمنـــاً
إني وزنتُ الـــذي يبقى ليعـــدلَه
ما ليس يبقى فـــلا والله ما اتـــزنا

ولعله استشهد به .

وبلغـه أن اسماعيـل ابن عليـة(١) ولي بعض الولايات فكتب اليه :

يا جاعلَ العلمِ لــه بازيا	يصطاد أمـوالَ الســلاطين
احتلت للدنيــا ولذاتِهـا	بحيـلة تـذهب بالــدين
فصرت مجنوناً بهـــا بعدما	كنـت دواءً للمجـــانين
أين رواياتُك والقـــولُ في	لـزوم أبواب الســلاطين
إن قلت أكرهت فمـا هكذا	زل حمـــار الشيخ في الطين

وكثيراً ما كان يستشهد بهذين البيتين :

وهل ضيّع الدينَ إلا الملوكُ	وأحبـارُ سوءٍ ورهبانُهـا
لقـــد رتع القومُ في جيفةٍ	يبين لــذي العلم اتنانُهَـا

(١) علية ، امه وهو اسماعيل بن ابراهيم ، احد ائمة الحديث ، كان ثقة ماموناً توفي سنة ١٩٣ .

ويظن أنهما له ، لأنه يكثر الكلام في هذا المعنى ، ولقد سئل مرة :

ـ من سفلة الناس ؟

قال : الذين يتعيشون بدينهم •

* * *

لعلكم تسألون بعد هذا كله ، عن منبت هذه الدوحة المباركة التي أتت أكلها من أصناف الثمر أضعافاً • إن منبتها أيها القراء في بستان في خراسان •

وكان (ناطور) هذا البستان مولى تركياً صالحاً اسمه مبارك ، فجاء صاحب البستان يوماً فأمره أن يقطف له رمانة حلوة ، فذهب فجاءه برمانة فذاقها ، فاذا هي حامضة ، فقال له :

ـ انها حامضة ، فجئني برمانة حلوة •

فجاءه باخرى ، فذاقها فإذا هي حامضة ، فصاح به :

ـ أقول لك إني أريدها حلوة •

فقطف له الثالثة فذاقها فوجدها حامضة ، فقال له :

ـ ويلك ، أحمار أنت ، ما تعرف الحلو من الحامض ؟

قال : وكيف أعرفه وأنا لم أذقه ؟

قال : لك في البستان (كذا) سنة ولم تذقه ؟
قال : نعم ، لأنك ما أذنت لي بالأكل منه[1] .

فعجب منه وحقق فإذا هو قد صدق ، فأكرمه وعظمه وجعل يستشيره في أمره ، وكانت لصاحب البستان بنت كثر خطابها ، فسأله ، فقال له :

ـ يا مبارك ، من ترى نزوج هذه البنت ؟

قال : أهل الجاهلية كانوا يزوجون للحب ، واليهود للمال ، والنصارى للجمال ، وهذه الأمة للدين . فأعجبه عقله ، وذهب فأخبر به أمها ، وقال لها :

ـ لا أرى لها زوجا غيره .

فتزوجها ، فجاءت بعبد الله .

فكان نسبه الى الصدق والصلاح ، إن انتسب الناس الى الامراء والعظماء وكرام الآباء . وكان حسبه العلم والتقى ، إن كان حسب الناس الامارة والسلطان ، وكان فخره بنفسه ، وعظمته بأعماله ، ومجده يبدأ به لا ينتهي عنده .

رحمة الله ورضوانه عليه ، وعلى هؤلاء العلماء الذين جمع الله لهم سعادة الدارين ، وعزّ الحياتين إن شاء الله .

* * *

(١) ائتمانه اياه على البستان اذن بالدلالة . قال تعالى (او ما ملكتم مفاتحه) فله الاكل من ثمرته ما لم ينهه صاحبه صراحة .